الهوية الثقافية وصراع الحضارات
في ظل الثورة التكنولوجية

د/ محمد قارش
قسم العلوم الإنسانية ـ جامعة الحاج لخضر ـ باتنة

ملخص:
لقد أمسى الحفاظ على الهوية الثقافية هو الشغل الشاغل، ولاسيما في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي شكلت ذروة صراع الحضارات آنذاك، وهو ما يدعمه رأي هانتنغتون القائل بأن الثقافة هدف يموت الإنسان لأجله. وباعتبار الدين عنصرا أساسا في البناء الثقافي فإن الاختلافات الثقافية هي ما يؤجج النزاعات الدولية التي ما تلبث أن تغدو صراعات حضارية ومن ثم صدامات.

لقد تغيرت البنية الكونية بين الأمس واليوم، فبعد أن وسمتها ثنائية القطب إبان الحرب الباردة أعيد بناؤها مجددا وفق مفهومات ثقافية وحضارية جديدة رسمت بدورها ملامح السياسات الدولية وفق معالم الصراع الحديث، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات والثقافات ستغدو خطوطا لمعارك مستقبلية لتمهد بذلك الطريق أمام شكل جديد من أشكال النزاع في العالم الحديث.

English:

Protecting the cultural identity has become a very important matternowadays, particularly in the wake of the 9/11 attackswhich has been considered as the climax of whatwe call «the clash of civilisations », and according to Huntingtonidentityis something that a person wouldscarify his life to preserv.

If we bear in mind that the religion is the most important component of the culture, we may understand how the international conflicts are stirred up.

After being bipolar, the world has transformed to a multi civilizational world, what led to new references and new concepts and also new causes of wars based on the nuances between the cultures.

مقدمة:

إن مواجهة التحديات الإقليمية والدولية في ظل الثورة التكنولوجية الحديثة خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة، وقيام نظام عالمي جديد، والذي بات يقدم أطروحاته ضمن سياق العولمة، فأصبح الخطر يحدق بالأمة العربية والإسلامية خاصة ما يتعلق بهوية الأمة وتقاليدها وأخلاقياتها، وهي قضية مهمة وحساسة بحد ذاتها تثير القلق لدى المفكرين والعلماء، لهذا شهدت الكثير من المجتمعات نقاشات وحوارات مفتوحة بهدف التوصل إلى حلول واقعية وفعالة، تحمي الهوية الوطنية، وتنفتح على الآخر في إطار ما يسمى بالاتصال الثقافي، دون الوصول إلى مستوى يحول النقاشات إلى صدام، ليتسنى للأجيال الصاعدة ولوج حضارة العصر، وهي أكثر أمانا وفاعلية وأصالة بعد رسم استراتيجيات الدفاع عن قيم المجتمع وهويته، وكيفية التعامل بإيجابية مع التقانية الحديثة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصال في ظل الانفجار المعلوماتي ومحاولة تقليص الفجوة المعرفية بين الشمال والجنوب.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية هذه الدراسة في البحث عن العلاقة بين الهوية الثقافية وصراع الحضارات، في ظل هذه الثورة التكنولوجية المتسارعة، كما تكمن أهمية هذه الدراسة أيضا، في تحليل أقوال كل من "**صموئيل هنتنغتون**"، "وفوكوياما".

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى ما يلي:

1 – تحديد طبيعة الصراع الحضاري.

2 – تحديد الهوية الثقافية في ظل الصراع الحضاري.

3 – تحديد أسباب النزاعات والصراعات المستقبلية.

4 - تحديد العلاقة بين التقدم التكنولوجي وصراع الحضارات.

منهج الدراسة: لقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي باعتباره الأنسب لمثل هاته الدراسات، وذلك بتتبع طبيعة هذا الصراع وتحليله، ووصف آلياته للوصول إلى استنتاجات علمية.

الإشكالية: لقد شغلت قضية صدام الحضارات في السنوات الأخيرة الكثير من المثقفين والعلماء والسياسيين في شتى أنحاء العالم، خاصة بعد صدور أطروحة صدام الحضارات لصاحبها صموئيل هنتغتون، فالافتراض الأساس لأطروحة صدام الحضارات هو أن الهوية الثقافية هي التي تشكل نماذج التماسك والتفكك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة، فالصراع المستقبلي لن يكون سياسيا أو عسكريا وإنما يكون بين هويات ثقافية مختلفة، لأن عالم ما بعد الحرب الباردة حسب هنتغتون عالم يتكون من سبع أو ثماني حضارات، والاختلافات الثقافية تشكل المصالح والتناقضات والتجمعات بين الدول، كما تشكل الثورة التكنولوجية دورا كبيرا في هذا الصراع الحضاري، ومن هنا تطرح الإشكالية التالية:

إلى أي مدى تمثل الهوية الثقافية حلبة للصراع الحضاري؟ وما هي منطلقات هذا الصراع؟ وكيف وظفت الثورة التكنولوجية في هذا المجال؟

إن الإجابة عن هذه الإشكالية، والتساؤلات المنبثقة عنها، يجرنا للحديث عن جملة من المتغيرات الثقافية والتكنولوجية، والحضارية، ونبدأ بـ:

أولا - الهوية الثقافية ومسألة نهاية التاريخ وصراع الحضارات

يشهد العالم منذ هجمات يوم الثلاثاء 11 سبتمبر سنة 2001م التي استهدفت مركز التجارة العالمي والبنتاغون -دون الخوض في تفاصيلها وما قيل حولها- تحولات دولية صاخبة وصعبة، سواء على صعيد الولايات المتحدة الأمريكية أو العالم من أقصاه إلى أدناه، ولعل أبرز ما في المشهد هو تسلم أمريكا قيادة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وخروج الدول الاشتراكية من فلكه، وتكريسها لنظام عالمي جديد أكثر صرامة وأشد انقيادا لصالح الولايات المتحدة، وعولمته وفق الرؤى الأمنية الاستراتيجية لما بعد يوم الثلاثاء 11 سبتمبر 2001.

إذا كانت البنية الكونية للقوة في الحرب الباردة ثنائية، فإن ما يميز البنية الراهنة هو إعادة تشكيلها وفق صيغ ثقافية وحضارية وإعلامية، ولعلنا إذا رجعنا قليلا إلى الوراء لوجدنا التحالف قائما بين النظام العالمي الجديد، ومسألة نهاية التاريخ، ففي جوان 1989 نشر "فرانسيس فوكوياما" (Francis Fukuyama) مقالة بعنوان "نهاية التاريخ" في ثلاثين صفحة في مجلة أمريكية بعنوان (ناشيونال اينترسيت)، وقد أثارت هذه المقالة نقاشا مدهشا على المستوى العالمي وأصبح "فوكو ياما"[1] مشهورا في إدارة الموارد البشرية لوزارة الخارجية الأمريكية.

إن المنحى الذي انتهجه الكاتب مرتبط بالعلم السياسي، أو علم العلاقات الدولية، "ففوكوياما" يتكلم عن عولمة أو توحيد الإنسانية ضمن الليبرالية الديمقراطية، كما أن نهاية التاريخ ليست فكرة من عندياته أساسا، وإنما استقاها أساسا من "هيغل"، ويعلن "فوكوياما" أن التصدير الإيديولوجي للإنسانية أفضى إلى تدويل الديمقراطية، وتعميقها على الكون، وكأنها الشكل النهائي لأي حكم سياسي[2].

إن هذه المقولة "نهاية التاريخ" ذات طابع فلسفي يرجع أصلها كما قلنا "لهيغل" ثم أخذها عنه "كارل ماركس" وأعطاها أبعادا مادية تاريخية وهذا ما أقر به فوكوياما مع فارق كبير هو أنه رد الاعتبار "لهيغل" على حساب "ماركس".

إن نهاية التاريخ تنتهي عندما يزول التناقض السلبي بين الفكر والواقع، وبين الإنسان والإنسان وبين الطبيعة والإنسان، وبين ثقافة وثقافة أخرى، فإذا كان التاريخ قد انتهى بالنسبة" لهيغل"عام 1806م في معركة "يينا" بتصالح العقل مع الواقع، وانتصار "نابليون" ممثلا للطليعة الإنسانية المجسدة لمبادئ الثورة الفرنسية، إذا كان الأمر كذلك فان التاريخ انتصر في نظر "فوكوياما" عام 1989م، وفي هذا التاريخ وصلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى مرحلة أصبح فيها بإمكان الفرد أن يسد حاجاته دون أن يعمل أكثر مما يريد، وهذه الطريقة الأمريكية هي نمط العيش الخاص لمرحلة ما بعد التاريخ.

وقد اعترف "فوكوياما" بأن الإسلام هو الوحيد الذي اقترح دولة ديمقراطية كحل تعويضي وبديل لليبرالية والشيوعية، ولكن لا يمكن لهذه النظرية تعبئة غير المسلمين، إذ أن جاذبيتها محدودة على سلالة وأمة، وهي غير قادرة –على حد تعبيره– أن تولد حركة ذات أهمية ومعنى كوني، ناسيا أن الإسلام رسالة كونية ورسالة عالمية: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينْ**﴾[3]، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَةً لِلنَّاسِ**﴾[4].

ويرى "فوكوياما" أن العالم كان مجالا للصراع بين نظامين فانتهى نقيض الرأسمالية وهو الشيوعية، وبالتالي انتهى الصراع، فهذه الفكرة تحتاج إلى تصويب، فالصراعات لن تتوقف أبدا، ولا يزال الشيء ونقيض الشيء موجودين ويحكمان، وسيظلان يحكمان حتى ينتهي التاريخ، فالسنن الكونية هي السنن، وسنة التدافع لن تتغير"وسنن الله لا تحابي أحدا"[5].

إن صراع الحضارات لم يعد مسألة نظرية، ولكنها واقعية؛ فتركيا في سنة 2001 م أصدرت قانونا – مر في هدوء ولم يلتفت إليه أحد– يقضي

بتعديل قانون الأحوال الشخصية التركي، وجاء صدوره بناء على طلب من الاتحاد الأوروبي، باعتباره شرطا من شروط قبول تركيا عضوا في الاتحاد الأوروبي، وهذا التعديل في القانون يلغي قوامة الرجل على المرأة، ويعطي للمرأة الحق في أخذ 50% من رصيد الرجل إذا حدث الطلاق، كما تغير قانون المواريث في تركيا بما يتفق مع القوانين الأوروبية، ويساوي بين الذكر والأنثى، فنحن أمام حرب ثقافية أساسها القوة والهيمنة.

ثانيا - طبيعة الصراع الحضاري

أما الجانب الثاني في هذا الموضوع فهو صراع الحضارات، فقد أحدث بحق الكاتب "صمويل هنتنغتون"[6]- في بحثه صراع الحضارات (le conflit des civilisations) وتشكيل نظام عالمي جديد - ضجة عالمية مثلما أحدثه كتاب "فوكوياما" **نهاية التاريخ** (la fin de l’histoire) بسبب أن الباحث يعتمد في بحثه على فكرة واحدة أحادية التفكير، وكان من المفترض تنويع الاتجاهات مثل ما كتبه "ارنولد توينبي" و"ماكس ويبر"، وما أبعدنا عن عمق الإطلاع على الحضارات في كتاب يريد أن يتحدث عن صراع الحضارات، "فصموئيل هنتنغتون" يعترف بتنوع الحضارات بصفة مشبوهة، ويعتبر أن هذه الحضارات ستصطدم يوما ما مثلا: الحضارة الكنفوشية الصينية قد تتحد مع الحضارة الإسلامية ضد الحضارة الغربية.

إن هذه النظرية الأمريكية تبحث عن المصالح الاستراتيجية الأمريكية وتلبي التعطش الأمريكي لإخضاع العالم، مكتسحة كل العوائق القيمية والقومية والثقافية من جهة، وملبية تطلعات التحالف المسيحي الصهيوني، مواجهة أخرى في دائرة سموها محور الخير والشر، والذي يسعون فيه لأن ينتصر الخير الأمريكي "الصهيوني" على الشر الذي يمثل كل ما هو إسلامي[7].

ويذكر "صمويل هنتنغتون" في الفرق بين الحضارة والثقافة بقوله: "لقد وضع المفكرون الألمان في القرن التاسع عشر تمييزا حادا بين الحضارة التي تتضمن الآلات والتكنولوجيا والعوامل المادية، وبين الثقافة التي تتضمن القيم والمثل، والصفات الذهنية والأخلاقية الراقية في المجتمع، ويعرف البعض الحضارة بأنها: "الجانب المادي من الثقافة" ويرى هو شخصيا، أي "صموئيل هنتنغتون"، أن الحضارة والثقافة كلاهما يشير إلى مجمل أسلوب الحياة لدى شعب ما، فالحضارة هي الثقافة على نطاق واسع.

كما يرى "صموئيل هنتنغتون" أن وسائل الإعلام والاتصال سوف تكون أهم أسباب النزاعات المستقبلية بالرغم من الجانب الايجابي فيها، وهو

التقريب بين الأمم والشعوب ثم عولمتها. إن المصدر الأساس للنزاعات في هذا العالم الجديد (عالم ما بعد الحرب الباردة) لن يكون مصدرا إيديولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأول، فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية والمصدر المثير للنزاعات سيكون مصدرا ثقافيا، وستظل الدول والأمم هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية.

إن النزاعات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين أمم ومجموعات لها حضاراتها المختلفة وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل، وسيكون النزاع بين الحضارات هو المرحلة الأخيرة في تطور النزاع في العالم الحديث[8].

ثالثا - آليات صراع الحضارات

يرى "صموئيل هنتنغتون" أن الثقافة هدف يموت الإنسان من أجله، والدين عنده جزء من الثقافة والخلافات الثقافية هي جزء من النزاعات الدولية التي تتطور إلى صراعات حضارية ثم صدامات، والنجاح الاقتصادي هو نتيجة للنجاح الثقافي، والعولمة في هذا السياق تسير لتشكل ما يسمى "بنظرية التلاقي"، والتلاقي هو توحد النماذج كلها بحيث تتبع نمطا واحدا، وقانونا عاما واحدا هو قانون التقدم والتطور، وبالتالي حتى الدراسات الثقافية والاجتماعية تدعو إلى النمطية الأحادية.

إن السؤال المطروح – حتى ولو افترضنا أننا مع العولمة في بعدها الثقافي الذي تدعو إليه أمريكا – هل حافظت على الثقافة والتراث العراقي عندما قامت بغزوه؟ الشيء الوحيد الذي حافظت عليه هي وزارة النفط والباقي دمر تدميرا كاملا حتى تطمس معالم الهوية العربية الإسلامية لهذا البلد وشعبه.

إن معظم المجتمعات والشعوب تبدو غير مطمئنة إلى هذا الكم الكبير من المفاهيم والقيم، وأفكار العولمة الثقافية التي تروج عبر الفضائيات، ومن خلال آخر تقنيات الاتصال والمعلومات، ومن ثمة تمرير الثقافة الأمريكية كنموذج لثقافة عالمية ينبغي نشرها، ولم يحدث في التاريخ أن أصبح العالم مقبلا على رموز ومعطيات وسلع الثقافة الاستهلاكية، كما هو مقبل عليها في الوقت الراهن، وقد ساعد هذا الثورة التكنولوجية في مجالات الاتصال التي جعلت العالم قرية واحدة، وبالتالي ساعدت في توحيد كثير من الثقافات[9].

لقد ركزت النظرية النقدية الإعلامية، والنظرية النقدية الثقافية على قضايا القوة والصراع والتغيير، فقد رأى واضِعُوا هذه النظريات أمثال

"جرامشي" و"ألتوسير" و"أدورنو" و"ريموند ويليام" و"هيرمان" و"تشومسكي"، أن وسائل الإعلام والاتصال قوة موجهة تهدف إلى فهم الواقع الاجتماعي، وإعادة تشكيله من الناحية الثقافية ليستطيع نظام الحكم السيطرة والاستمرارية، فإذا كان الصراع إبان الحرب الباردة صراعا عسكريا واقتصاديا، فان الصراع اليوم تم تشكيله وصياغته وفق صيغ ثقافية وإعلامية وحضارية[10].

رابعا- الإعلام والهوية الثقافية في ظل الثورة التكنولوجية

يرى نقاد الثقافة الجماهيرية أن مستقبل الثقافة الإنسانية سيكون مظلما طالما أوشكت ثقافة الكتب (وكل ما هو مكتوب) أن تفقد تأثيرها لحساب حضارة الصورة ذات المضامين الثقافية المختزلة في شعارات أو أقراص إعلامية سهلة الانتشار، ولكنها ضحلة القيمة والمضمون، ولكن ثمة آراء أخرى ترى أن استخدام "الريموت كنترول" علامة على تفعيل حق الاختيار المتاح للمتلقي للتنقل وقت ما يشاء وبأقل جهد ممكن بين المحطات المتنوعة وبالتالي هو بمثابة وسيلة تكنولوجية مساعدة لتجاوز محدودية القدرات التفاعلية لجهاز التلفزيون.

لكن أيا كانت الآراء المعارضة أو المؤيدة فإن ثقافة شبكات المعلومات تبدو في هذا الصدد بمثابة ضوء ساطع لإزالة كافة البقع المظلمة، في خريطة وسائل الاتصال الجماهيرية التقليدية، وذلك انطلاقا من أن الشبكات يمكن أن تسهم في ديمقراطية الثقافة، وفي التوازن والاحترام المتبادل بين الثقافات بحيث يتحول الاتصال إلى طاقة ثقافية تخدم الأهداف الفردية والعامة، وتعمل على توفير فرص أكبر لمشاركة الجماهير في العملية الثقافية، كما ستعمل على إلغاء الفوارق الطبقية لأنه لا يكون هناك كمبيوتر أفضل من كمبيوتر آخر داخل الشبكة (فيما يعرضه وليس كجهاز)[11].

ولا يقتصر الأمر في مجال نقد تكنولوجيا الاتصال على المخاوف الواقعية، ولكنه يمتد إلى المخاوف الوهمية، ويتمثل ذلك فيما يعرف بظاهرة "التكنوفوبيا"، حيث لا ينحصر الخوف المرضى من التكنولوجيا بين مجموع البسطاء ذوي الثقافة المحدودة الذين ينفرون من استخدام الأجهزة الحديثة، بل يمتد أيضا إلى الإداريين وصناع القرار الذين يرفضون تغيير أساليب العمل التقليدية والاستفادة من إمكانيات الأجهزة الحديثة نتيجة هذا الشعور المرضي، وقد تولدت عن هذه الآراء اتجاهات فكرية حول تكنولوجيا الاتصال تتمثل في:

1- نظرية الحتمية التكنولوجية (التفسير التكنواتصالي للتاريخ)

يعد المفكر الكندي "مارشال ماكلوهان" صاحب النظرية الحتمية التكنولوجية، حيث عرض آراءه وأفكاره حول هذه النظرية عام 1962م في كتابه "مجرة جوتنبرج" (نشوء الإنسان الطباعي) حيث قسم التاريخ الإنساني إلى أربعة مراحل[12]:

أ/ **مرحلة طفولة البشرية**: وهي فترة ما قبل الحضارة أي عصر المجتمع القبلي الذي كان يعتمد على الاتصال الشفهي.

ب/ **عهد الشباب الأول للبشرية**: وهي فترة الانتقال إلى عصر الكتابة والتدوين.

ج/ **عهد الشباب الثاني**: وهي الفترة التي بدأت باختراع "جوتنبرج" للحروف الطباعية المعدنية المتحركة.

د/ **عهد الشباب الثالث**: وهي الفترة التي بدأت بظهور التقنيات الالكترونية وبالذات مع ظهور التلفزيون.

من خلال هذه المراحل الأربعة يفسر "ماكلوهان" مجمل تاريخ البشرية من خلال تطور وسائل الاتصال، حيث يرى أن البشرية ما هي إلا نتاج لحتمية تكنولوجية تدفعنا بالقوة نحو المستقبل، ففي الحقبة الأولى من تاريخ البشرية (حقبة الأمية) استخدم البشر كل حواسهم بالتساوي للاتصال ببعضهم البعض (اللمس، البصر، السمع، الشم)، وبالتالي لم يكن هناك تسلسل أو أولوية بين حواسنا مما أدى إلى أن تستوعب البشرية التجربة الكلية للبيئة التي تعيش فيها، والتي أصبحت مجرد قرية كونية global village تحكمها ثقافة قبلية[13].

أما في الحقبة الثانية فقد تجاوزت البشرية مرحلة الأمية، وانتقلت إلى مرحلة الاتصال عن طريق الرموز من خلال اختراع الكتابة التصويرية وتطويرها إلى الكتابة الأبجدية الألفبائية، وقد أدى وجود الحروف الهجائية إلى حدوث خلل في نظام الإدراك الحسي عند الإنسان ينبع من الطبيعة البصرية التي أضفتها الحروف على الاتصال الإنساني، حيث أصبح الاتصال الإنساني يقوم على أساس سطور وخطوط ذات بعد واحد، مما أدى إلى أن يتسم تفكير الإنسان بالسطرية أو الخطية، وبالتالي حلت محل الثقافة القبلية ثقافة فردية يمكنها تحقيق الاتصال بالآخرين دون حضورهم.

أما في الحقبة الثالثة –حقبة اختراع الحروف الطباعية المعدنية المتحركة – فقد ازداد تقييد الإنسان بالطبيعة البصرية، التي أضفتها السطور

الطباعية على تفكيره، انطلاقا من الانتشار الواسع لهذه التكنولوجيا الجديدة، بحيث أصبحت وسائل الطباعة بمثابة النظارة الواقية التي ننظر من خلالها إلى المجتمع وبالتالي أدت إلى تكريس نظرتنا ذات البعد الواحد، ونظرتنا الخطية للعالم، الأمر الذي أدى إلى ظهور تكنولوجيا مصانع خطوط الإنتاج.

أما الحقبة الإلكترونية فقد دفعت الجنس البشري إلى عمليات اتصال عديدة وجديدة، حيث قامت الوسائل الجديدة مثل الراديو والتلفزيون والكمبيوتر بربط الدول والثقافات بشكل غريزي وفوري الأمر الذي أوضح بأن البشرية قد دارت دورة كاملة حول نفسها لتعود من حيث بدأت إلى عصر القرية العالمية التي ينصت فيها كل فرد إلى نفس الطبول القبلية القديمة[14].

2- نظرية المجتمع بعد الصناعي (مجتمع المعلومات):

تنتمي نظرية المجتمع بعد الصناعي (مجتمع المعلومات) إلى المفكر الأمريكي "دانييل بيل"، وجاءت صياغة نظريته عام 1973م في كتابه (المجتمع بعد الصناعي المقبل)، وازدادت وضوحا في مقاله المنشور عام 1981م بعنوان (الإطار الاجتماعي لمجتمع المعلومات) حيث قسم "دانييل" تاريخ البشرية إلى ثلاث مراحل هي[15]:

ا/ مرحلة المجتمع قبل الصناعي: وهي المرحلة التي كان الإنسان يتعامل فيها مع الطبيعة – الأرض الماء والغابات- وكان هذا التعامل يتم من خلال مجموعات صغيرة من البشر.

ب/ مرحلة المجتمع الصناعي: وهي المرحلة التي صار الإنسان يتعامل فيها مع الوسط الصناعي، حيث يحتجب الإنسان وراء الآلات المنتجة للبضائع.

ج/ مرحلة المجتمع بعد الصناعي (مجتمع المعلومات): وهي المرحلة التي أصبح الإنسان يتعامل فيها مع الإنسان بحيث يتم استبعاد الطبيعة، ويتعلم الناس العيش بعضهم مع بعض.

ويرى "دانييل بيل" أن مجتمع المعلومات هو ثمرة لتكنولوجيا الحاسب الآلي التي امتلكت القدرة على تغيير هيكل المجتمع وبناه الأساسية بكاملها، بحيث صار الحاسب الآلي يمثل رمزا وتجسيدا ماديا للثورة التقنية المندلعة، وبالتالي مثلما قامت الكهرباء بتغيير الحياة الاجتماعية كلها في النصف الثاني من القرن الماضي، كذلك يقوم الحاسب بقيادة التجديدات الحالية في المجتمع المعاصر[16].

3- نظرية المجتمع التليماتي (مجتمع التليماتيك):

يشير مصطلح التليماتي إلى المجتمع الذي تترابط فيه كل من وسائل الاتصالات والإعلام والمعلوماتية في بنية اتصالية واحدة، وتتبلور نظرية المجتمع التليماتي في كتابات كل من المفكر الفرنسي "بنياتوفسكي" والمفكر الأمريكي "جورج مارتين"، وكان "بنياتوفسكي" قد استخدم مصطلح "التليماتيك" في كتاب صدر له عام 1978م، واعتبر المجتمع التليماتي بمثابة مرحلة أكثر رفعة وارتقاء، بالمقارنة مع كل من المجتمع الرأسمالي والمجتمع الاشتراكي وذلك انطلاقا من زيادة حجم الذاكرة، ومضاعفة تحديث نظم المعلومات وما يترافق مع ذلك من تغييرات في نماذج وموديلات السلطة، مما يشكل قفزة حضارية يمكن مقارنتها بالقفزة الحضارية في مرحلة ما بعد اختراع الكتابة[17].

أما "جورج مارتين" فقد دعا في كتابين صدرا له عامي 1978 م و1981م؛ الأول بعنوان "المجتمع السلكي" والثاني بعنوان "المجتمع التليماتي" (تحدي المستقبل) دعا إلى تطوير ما نعرفه الآن بالتلفزيون التفاعلي بحيث تصبح ردود فعل جماهير المتلقين مأخوذة في الحسبان، الأمر الذي يخفف من الاحتمالات الانفجارية، انطلاقا من توفير وسيلة للجماهير للتعبير عن عدم رضاهم، وتوفير وسيلة للسلطات لقياس عدم الرضا لدى الجماهير.

ويرى "مارتين" أن مجتمع التليماتيك في جانبه السلبي يمكن أن يتحول إلى فاشية معلوماتية في ظل هيمنة الدولة على كم كبير من المعلومات الخاصة المتعلقة بالجماهير، كما يمكن أن يتحول في جانبه الإيجابي إلى مجتمع رقمي مثالي، توفر فيه التكنولوجيا كافة وسائل الرفاهية[18].

4- نظرية الموجة الثالثة وتحول السلطة:

وتنتمي نظرية الموجة الثالثة وتحول السلطة إلى المفكر الأمريكي المستقبلي "آلفين توفلر" وقد تبلورت رؤية توفلر في كتبه الثلاث الشهيرة:

الأول بعنوان "صدمة المستقبل" صدر عام 1970 م

الثاني بعنوان "الموجة الثالثة" صدر عام 1980 م

الثالث بعنوان "تحول السلطة" صدر عام 1990 م، ويرى "توفلر" أن حضارات العالم مرت بثلاث موجات هي:

أ- حضارة الموجة الأولى: وهي حضارة الثورة الزراعية التي بدأت عام 8000 ق. م تقريبا.

ب- **حضارة الموجة الثانية**: وهي حضارة الثورة الصناعية التي بدأت تقريبا في الفترة من 1650 م إلى 1750 م.
ج- **حضارة الموجة الثالثة**: وهي حضارة المعلومات والمعرفة، والتي بدأت تقريبا عام 1955 م.

ويرى "توفلر" أن حضارة الموجة الثالثة أدت إلى إعادة ترتيب لأولويات السلطة التقليدية في عالمنا المعاصر، فتاريخيا كانت هناك دائما ثلاثة وجوه للسلطة تتمثل في القوة والمال والمعرفة.

ولكن ظلت دائما الأولوية في العصور الماضية للقوة العسكرية، ثم تحولت عقب ذلك للارتكاز على الإمكانات الاقتصادية، ثم تحولت في عالمنا المعاصر لكي تعتمد على القدرات المعرفية، وبالتالي يرى "توفلر" بأن التقدم الفائق في تكنولوجيا الاتصال يقدم المعرفة باعتبارها السلطة ذات الأولوية في عالمنا المعاصر[19].

خامسا- الثقافة والاتصال ومسألة السيطرة الثقافية

في دراسة لليونيسكو - أشرف عليها "شون ماكبرايد"- حديث مستفيض عن الدور الثقافي لوسائل الاتصال، جاء فيه أن الاتصال يؤدي دور الناقل الأساس للثقافة، ووسائل الاتصال هي أدوات ثقافية تساعد على دعم المواقف أو التأثير فيها، وعلى حفز وتعزيز ونشر الأنماط السلوكية وتحقيق التكامل الاجتماعي، وهي تلعب أو يتعين عليها أن تلعب دورا أساسيا في تطبيق السياسات الثقافية، وفي تيسير وإضفاء طابع ديمقراطي على الثقافة، وهي تشكل بالنسبة لملايين من الناس الوسيلة الأساسية في الحصول على الثقافة وجميع أشكال التعبير الخلاق.

كذلك فللاتصال دور في تدبير شؤون المعرفة، وتنظيم الذاكرة الجماعية للمجتمع، وبخاصة جمع المعلومات العلمية ومعالجتها واستخدامها، وهو يستطيع – احتمالا على الأقل – إعادة صياغة القالب الثقافي للمجتمع، ومع ذلك ففي هذا المجال كما في سائر المجالات، فإن التطور السريع للتكنولوجيا الجديدة ونمو البنى المصنعة التي تستمد سيطرتها على الثقافة وعلى الإعلام يخلق مشكلات وأخطارا[20].

وبينت الدراسة أن المسؤولية الملقاة على عاتق وسائل الإعلام الجماهيرية مسؤولية هائلة -سواء كان ذلك خيرا أم شرا- ذلك أنها لا تقوم بمجرد نقل الثقافة ونشرها بل انتقاء محتواها أو ابتداعه، وهناك خطر آخر اكتسب أبعادا كبيرة وهو السيطرة الثقافية التي تتخذ شكل الاعتماد على نماذج

مستوردة تعكس قيما وأساليب حياة غربية، وتتعرض الذاتية الثقافية للخطر من جراء التأثير الطاغي للأمم القوية على بعض الثقافات القومية واستيعابها رغم أن الأمم صاحبة هذه الثقافات الأخيرة هي وريثة ثقافات أقدم عهدا، وأكثر ثراء، حيث أن التنوع والتباين هما من أهم خصائص الثقافة وقيمها، فالعالم بأسره هو الخاسر من جراء هذا الصراع[21].

إن السيطرة الثقافية التي أشار إليها "د. أحمد جازي"، وهو يتحدث عن بلورة ثقافة عالمية تتسم بسمات خاصة تستفيد منها الفئات المسيطرة على العمليات الاقتصادية والسياسية والإعلامية، حيث تحتكر التقنية والإنتاج الإعلامي على المستوى العالمي، ولا شك أن ذلك من شأنه تشكيل نمط محدد من الوعي الثقافي، وفرض نماذج وفلسفات غربية من خلال إنتاج وتوزيع واستهلاك المواد الإعلانية الاتصالية.

لقد لعبت الشركات المتعددة الجنسيات والمسيطرة على أدوات التقنية الحديثة دورا بارزا في تغيير اتجاهات الأفراد سواء داخل المجتمع الغربي ذاته أو خارج المجتمع، وكان التأثير الأكبر على الفئات الشعبية في المجتمعات التقليدية التي تتغلغل فيها الثقافات الغربية الموجهة.

وقد بين الأستاذ "مانكيكان" في دراسة بعنوان "تدفق المعلومات بين الدول المتقدمة والنامية" خطورة الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام الأمريكية في السيطرة الثقافية العالمية، بفضل تحكمها في التقنية الحديثة والإنجازات المذهلة التي حققتها الثورة الإلكترونية[22].

فقد نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في تطوير ما أصبح يعرف باسم "صناعات المعرفة والإعلام" والتي نجحت صادراتها الثقافية البالغة القوة والتأثير في تحويل التدفق الحر للمعلومات إلى طريق اتجاه واحد - أي من الدول المتقدمة إلى الدول النامية -، وتفيد الإحصائيات بأن خمسة وستين في المائة من الأخبار والمعلومات التي يتم تداولها في العالم بشكل أو بآخر يرد من الولايات المتحدة الأمريكية، وأن سير المعلومات يمضي في اتجاه واحد من الدول المتقدمة إلى الدول النامية كما أسلفنا، وبذلك تواصل الولايات المتحدة الأمريكية سيطرتها على العالم، وتلك هي المفارقة المثيرة للسخرية فيما يتعلق بحرية الإعلام وأكثر الأدوات التي تستخدمها واشنطن فعالية لتحقيق هذه الغاية هي وسائل الاتصال الإلكترونية والهيئات المتعددة الجنسيات لكي تنشر أسلوب الحياة الأمريكية، وثقافة المال والتجارة.[23]

إن صناعة الاتصال تحتل مكانا بارزا بين الصناعات الأخرى، وهي تحتوي كما يقول "ماكبريد" على ما يمكن أن يسمى صناعة الثقافة بمعنى أنها تعيد إنتاج أو نقل منتجات ثقافية أو أعمال فنية وثقافية بالوسائل الصناعية، وكانت مصادر انتفاع الناس بأعمال الإبداع الثقافي في بدايات القرن العشرين مقصورة بصفة عامة على محال بيع الكتب والمكتبات، والمتاحف والمسارح وقاعات الموسيقى، أما اليوم فإن منتجات الثقافة من كتب وأفلام وتسجيلات وبرامج تلفزيونية تصل غالبا إلى جمهور يعد بالملايين.

وقد أوضح "د. السيد عليوة"، وهو يحلل ظاهرة البث المباشر عبر الأقمار الصناعية من زاوية تأثيره على المشاهد العربي، أن الجوانب الإيجابية لهذا البث تتمثل فيما يلي:

1- تجديد الثقافة الوطنية الراكدة في بعض الأحيان بتطعيمها بنماذج وتطلعات عصرية – الحتمية التكنولوجية – جديدة [24] تتعلق بالإبداع والأداء الرفيع والإيقاع السريع مع تشجيع التبادل الحضاري ونشر التسامح الثقافي بين الأمم والشعوب.

2- تطور وسائل الاتصال المحلية، وبالذات التلفزيون، حيث تفرض عليها المنافسة مع القنوات العالمية ضرورة تحديث أساليبها.

3- اختفاء فكرة السيادة الإعلامية التي كانت تتمسك بها الدول، الأمر الذي سوف يثير قلق الحكومات الاستبدادية والنظم العنصرية، وانتشار الخوف المرضي من التكنولوجيا أو ما يسمى بـ"التكنوفوبيا"[25]، لأنه يتضمن مزيدا من الدعوة إلى التحرير والانطلاق، كما سوف يزود الناس بالمزيد من المعلومات التي تساعدهم على حرية الاختيار.

وتتمثل الجوانب السلبية فيما يلي[26]:

1- تشكيل العقول والتلاعب باتجاهات الرأي العام وتوجيه رغبة الناس بما يتفق مع سياسات ومصالح أصحاب هذه المحطات من الدول الصناعية الغربية – وفي مقدمتها الولايات المتحدة – وغيرها من رجال الأعمال.

2- حقن الوجدان القومي بقيم ومعايير وسلوكيات قد لا تتفق مع الثقافة التقليدية، الأمر الذي سيهدد النسيج الاجتماعي.

3- إشاعة الميول الاستهلاكية النهمة، والرغبة في التقليد والمباهاة (إنسان السوق، إنسان الربح والخسارة لا إنسان القيم والمبادئ).

4- تركيز بعض المحطات الإخبارية في الولايات المتحدة الأمريكية بجذب اهتمام المشاهد في تقديم الأخبار بعيدا عن المجرى الصحيح أو الحقيقي للأحداث، بغرض الإثارة والتشويق والملاحقة.

5- التهديد الذي تمثله وكالات الإعلان العالمية بما تفرضه من أساليب إعلانية غربية رأت فيها "اليونيسكو" تهديدا للذاتية الثقافية لكثير من البلدان النامية، فهي تعرض على جماهير غفيرة قيما أخلاقية أجنبية، وقد تحول طلبات المستهلكين في البلدان النامية إلى مجالات استهلاكية قد تعوق أولوياتها الإنمائية، وهي تؤثر في أنماط المعيشة، وأساليب الحياة وكثيرا ما تشوهها، فضلا عن ذلك فإن تهديد المصالح الخاصة أو الحكومية بحسب إعلاناتها قد يشكل تهديدا لحرية الصحافة[27].

لقد أشار "د. محمد سيد محمد" في كتابه – الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر – إلى أن: "وسائل الإعلام في الوطن العربي قد انزلقت انزلاقا واضحا في سلبيات الإعلان وانعكست الأشكال الغربية للإعلان على الإعلان في العالم العربي بدرجات مختلفة".

وقدم "د.محمد شومان" تحليلا لآثار "عولمة الثقافة والإعلام" على الواقع الاتصالي والثقافي في النظام الإعلامي العربي عبر عنه بـعدم التوازن في انتشار تكنولوجيا الاتصال الجماهيري قائلا: "إن وسائل الإعلام في بعض الدول العربية مازالت عاجزة عن استيعاب التطورات التكنولوجية المعاصرة واستخدامها وملاحقتها، وعن توفير الكوادر الإعلامية الوطنية التي تفي باحتياجات الإنتاج كما ونوعا ومضمونا وشكلا.

إن الملفت للانتباه أن الفجوات بين الدول العربية أو داخل كل قطر تتسع فيما يتعلق باستخدام تكنولوجيا الاتصال الحديثة أو وسائل الاتصال غير التقليدية كالإنترنيت، وهو ما قد يرتب آثارا وتداعيات اجتماعية وثقافية خطيرة، كما أن التبعية الإعلامية العربية للإعلام الغربي من حيث استيراد مضامين إعلامية وترفيهية دون مراعاة للثقافة المجتمعية وخصوصيات الأقطار العربية والإسلامية يمثل خطرا آخرا أكبر على الهوية الوطنية"[28].

سادسا- بين الغزو الثقافي والاتصال الثقافي

إن هذه الصلة بين الثقافة والإعلام تقودنا إلى مناقشة ما يتم تداوله تحت عناوين الغزو الثقافي والاتصال الثقافي، وقد أشارت دراسة "شون ماكبريد" إلى أن الثقافة لا تتطور بانغلاقها على نفسها داخل قوقعتها وإنما تتطور بالتبادل الحر مع الثقافات الأخرى، والحفاظ على الصلة بكل قوى التقدم

الإنساني، بيد أن التبادل الحر لابد أن يكون أيضا على قدم المساواة، وقائما على أساس الاحترام المتبادل.

قد يؤدي تعدد قنوات الإرسال الذي أتاحته التوابع الصناعية للبث المباشر إلى تنوع أهداف المشاهدين والمستمعين، بيد أنه من خلال اشتداد المنافسة قد يؤدي هذا التعدد إلى توحيد نمط المحتوى، كما قد يؤدي على الصعيد الدولي إلى زيادة حدة التبعية الثقافية بزيادة البرامج المستوردة، وقد تنبه بعض الباحثين العرب لهذه المسألة المتصلة -بالأمن الثقافي العربي- وذكر "د. محمد سيد محمد" أن استراتيجية المواجهة في تحقيق الأمن الثقافي تعني مواجهتين: الأولى: كيفية مواجهة الغزو الثقافي، والثانية: كيفية التفاعل والاتصال الثقافي[29].

إن الغزو الثقافي والاتصال الثقافي لا يمكن الفصل بينهما في عالمنا المعاصر فصلا قاطعا، ولم يعد في مقدور أمة في عالمنا المعاصر أن تقيم ستارا حديديا بينها وبين العالم، فتستغني عن الاتصال الثقافي وتتفرغ لمواجهة الغزو الثقافي فحسب. إن طبيعة العصر جعلت بين هذين المفهومين المتناقضين - الغزو الثقافي والاتصال الحضاري- تلازما وثيقا في المجال والتأثير.

وكان "د. زكي نجيب محمود" من الداعين دائما إلى الانفتاح على ثقافات الآخرين وقد تساءل قائلا: "أصحيح أن الخصوصية الثقافية لشعب معين، قد تتعرض لخطر الانهيار إذا هي انفتحت أبوابها لتنفذ منها عوامل خارجية آتية من ثقافات أخرى"، يبدو أن مثل هذا الظن هو السائد في مصر وسائر أقطار الأمة العربية اليوم، ولذلك يكثر القول الدال على الفزع عما يسمونه "غزوا ثقافيا" يهدد خصوصية الثقافة العربية[30]. إنه لو صدق هذا الظن لما عرفت الدنيا شيئا اسمه لقاء الثقافات، وماذا يكون هذا اللقاء بين الثقافات إن لم يكن تأثيرا وتأثرا يحدث بها التبادل بين تلك الثقافات أخذا وعطاء.

أما "د. محمد عابد الجابري" فقد طالب المثقفين العرب بتحمل مسؤولية تغيير نظام الفكر السائد في الوطن العربي، خصوصا مع سيطرة الشركات المتعددة الجنسيات في الأقطار الصناعية الكبرى على صناعة العلم والتقانة قائلا: "إنه إذا لم تقم مشاريع عربية تقنية تتحدى حدود القطرية في الوطن العربي فإنه لا أمل في رؤية انبثاق أي تقدم حقيقي فيه ككل أو في أي قطر من أقطاره"[31].

ويضيف الجابري قائلا: "إنه لا يكفي أن يكون للعرب قناة تلفزية تبث عبر الأقمار الصناعية بل لا بد أن تكون برامج هذه القناة في مستوى فكري وفني يمكنها من اجتذاب المشاهد العربي، ومنافسة القنوات الأجنبية عليه، ولابد كذلك من أن تكون هذه البرامج من إنتاج عمل عربي مشترك، ليجد فيه المشاهد العربي ما يعبر عن خصوصيته القطرية وهويته العربية الإسلامية، وطموحاته الإنسانية، وأهم من ذلك كله لا بد أن يكون مضمون تلك البرامج من النوع الذي يعبر عن أحاسيس الوطن العربي، وعن طموحاته وآماله، وإلا فلن يختلف موقفه من البرامج القطرية الراهنة[32].

الخاتمة:

في نهاية المطاف نؤكد أن صدام الحضارات يحدث على مستويين؛ فعلى المستوى الضيق، تتصارع فيه الجماعات الموجودة على امتداد خطوط الصدع الفاصلة بين الحضارات بعنف غالبا حول السيطرة على الأرض، أما على المستوى الموسع فإن دولا منتمية إلى حضارات مختلفة تتنافس فيما بينها على امتلاك القوة العسكرية والاقتصادية الأكبر نسبيا، وتتصارع حول السيطرة على المؤسسات الدولية والأطراف الممثلة لها، وتظل عاكفة على التباري لنشر قيمها السياسية والدينية والثقافية، والوقوف في وجه المد الإسلامي حتى لا يعود إلى قيادة العالم مرة أخرى، بعد ظهور بوادر ذلك في تركيا وقيام الربيع العربي في كثير من البلدان العربية.

هوامش البحث:

[1]- حمد العربي بن عزوز: زمن هنتنغتون، صدام الحضارات ونهاية التاريخ، دار النهضة العربية، ط 1، ماي 2009، ص 76،77.

[2]- صموئيل هنتنغتون "باللغة الفرنسية"، نشر دار أوديل جاكوب، سنة 1997، القسم العاشر من الحروب الانتقالية إلى الحروب الحضارية، ص 272.

[3]- سورة الأنبياء، الآية 107.

[4]- سورة سبأ، الآية 28.

[5]- العولمة وحوار الحضارات والثقافات، عالم التربية مجلة محكمة تعنى بقضايا التربية والتعليم 17، 2007، ص 17-18، عبد الكريم غريب، التحليل السيكولوجي للحوار بين الحضارات والثقافات.

[6]- سليمان صالح، وسائل الإعلام وصناعة الصور الذهنية، مكتبة الفلاح، الكويت ط 1، ص 92، 2005.
[7]- د/ جبارة عطية جبارة، علم الاجتماع الإعلام، ط1، 2002، دار الوفاء للطباعة والنشر الإسكندرية، ص 197.
[8]- صالح خليل أبو أصبع، الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، دار للدراسات والنشر والتوزيع،عمان، الأردن، ط 4، 2004، ص 113.
[9]- وليام ريفيرز ورفيقاه، وسائل الإعلام والمجتمع الحديث، ترجمة إبراهيم إمام القاهرة، دار المعرفة، ص 301، 302.
[10]- محمود الذوادي، المقدمة في علم الاجتماع الثقافي برؤية عربية إسلامية، ط 1، 2001، ص 203.204
[11]- أحمد بدر، الصحافة الكونية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 2006، ص17.
[12]- محمد الشبيني، صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة، دار العلم للملايين، ط1، 2002، بيروت لبنان، ص 34.
[13]- نفس المرجع، ص 35.
[14]- محمد سعدي، مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات، مركز الوحدة العربية، ط7، بيروت 2006، ص 96.
[15]- فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي، ترجمة فؤاد شاهين وآخرون ط1، 1999، ص87.
[16]- نفس المرجع، ص 88.
[17]- فريدريك جيمسون، ثقافات العولمة، ترجمة ليلى الجبالي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط2004،1، ص101.
[18]- نفس المرجع، ص 102.
[19]- نفس المرجع، ص 103.
[20]- عبد الفتاح عبد النبي، تكنولوجيا الاتصال والثقافة بين النظرية والتطبيق، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2، ص 115، 2007.
[21]- نفس المرجع، ص 116.
[22]- نفس المرجع، ص117.
[23]- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2007، ص140.
[24]- نفس المرجع، ص141.
[25]- عبد القادر رزيق المخادمي، النظام الدولي الجديد، الثابت والمتغير، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط 3، ص57، 2006.

[26]- نفس المرجع، ص 58.
[27]- محمد جواد أبو القاسمي، نظرية الثقافة، ترجمة حيدر نجف، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط1 بيروت، ص310، 2008.
[28]- نفس المرجع، ص310.
[29]- نفس المرجع، ص310.
[30]- نفس المرجع، ص311.
[31]- عبد الله الغذامي، الثقافة التلفزيونية سقوط النخبة وبروز الشعب، المركز الثقافي العربي، ط2،2005، الدار البيضاء، المغرب، ص17.
[32]- نفس المرجع، ص17.